نبيل عبدالفتاح يعيد ترتيب أولويات الإصلاح السياسي والثقافي في كتاب جديد:

عولمة التدين ورأس المال منذ محمد علي وحتى الآن وكيف تعاملت الدولة المصرية الحديثة مع الأديان؟

القاهرة ـ «القدس العربي» ـ من محمود قرني:

عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان، صدر للباحث والكاتب السياسي نبيل عبدالفتاح كتابه «الإسلام والديمقراطية والعولمة» والكتاب يستكمل حلقة متصلة من الجهد الدؤوب الذي يواصله عبدالفتاح، لا سيما بعد كتابه المهم «سياسات الأديان»، الذي صدر قبل حوالي عامين، ثم أعادت الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعه في العام الماضي.

يبدو عبدالفتاح مشغولا بفكرة أساسية يستهدف الربط والتقييم المباشر بين تجليات الفكر العربي والاسلامي في صيغته المصرية، وبين أطروحات العولمة وما بعد الحداثة، وتبدو المحاولة مختبرا يؤسس له عبدالفتاح عبر مدرسة الليبرالية المصرية، التي تنطلق من اعادة الاعتبار لقوة العقل النقدي المتعدد لذلك فهو لا يألو جهدا في اعادة النظر في الكثير مما يراه معوقات فكرية وحضارية للانخراط في العالم الجديد، وفي الوقت نفسه لا يتجاهل إشكاليات أساسية مربكة مثل الأصالة والمعاصرة، ومسألة الآخر، وكذلك مسألة الهوية.

يتضمن الكتاب الجديد لنبيل عبدالفتاح خمسة فصول الأول هو «الإسلام والديمقراطية والعولمة، الحالة المصرية»، والثاني «القانون الفرنسي لخطر الرموز الدينية: أحجية وراء الحجاب، محاولة لتفسير ردود أفعال غاضبة» والثالث: لماذا نجح «الاخوان المسلمون» في انتخابات عام 2005 في مصر؟، والرابع: الدولة والدين والاصلاح الدستوري، اعادة التفكير في علاقة مركبة، أما الفصل الخامس والأخير فهو: الأزمات الطائفية: الجذور ـ المتغيرات ـ المعالجات، بالاضافة الى باب كامل لعدة وثائق لا تقل أهمية عن سياق الكتاب نفسه، أولها نص قانون الحريات الدينية الدولية الصادر في تشرين الاول (اكتوبر) 1999 عن الكونغرس الأمريكي ونص تقرير لجنة تطبيق العلمانية في الجمهورية الفرنسية، وتقرير الإخوان المسلمين عن المرأة المسلمة في المجتمع المسلم وكذلك الشورى وتعدد الأحزاب وكذلك قدم الكتاب البرنامج الانتخابي للاخوان المسلمين.

ومنذ مقدمته للكتاب يؤكد الكاتب نبيل عبدالفتاح أن عمليات العولمة باتت تشكل جزءا من التحولات الموضوعية في عالمنا، ومن هذه الزاوية يتم طرح السؤال المقابل ما الذي يجب علينا أن نفعله للمشاركة في هذه التحولات الموضوعية؟ وفي هذا السياق يقر عبدالفتاح بالمرجعية المؤثرة للإسلام كعقيدة وحياد في ما يسميه «ديناميات السوق العولمة للأديان الأخرى، ومؤسساتها وخطاباتها وآلياتها ونزاعاتها العديدة».

ورغم تسليمه بصعوبة الممارسة البحثية في هذا السياق إلا أنه يعترف في صلة الأول بعدد من الحقائق التي بدت على السطح ولا يمكن انكارها لا سيما بعد أحداث الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) مثل حجم التغير النوعي في السياسات والاتصالات الرقمية، وانعكاساتها على عمليات التحول العولمي المتسارع، وكذلك تجاوز ظاهرة العولمة للمصطلحات القارة والتي باتت تشكل نوعا من السرطان الماضوي.

في الوقت نفسه يناقش «الاسلام المصري بين الضغوط العولمية، وأوضاعه الداخلية وإشكالياته».

وفي الفصل الثاني يحاول نبيل عبدالفتاح قراءة الأسباب الكامنة وراء ردود الأفعال الغاضبة من قانون حظر الرموز الدينية في فرنسا، لا سيما أن ذلك كان شاملا كافة الأديان، ويتساءل عن دلالة ذلك في اطار العلمانية الفرنسية كقيمة مؤسسة للدولة والجمهورية في علاقتها بالأديان.

فيما يتعلق بالحالة المصرية يرى عبدالفتاح أنه لم تتحول القضية الى أزمة خطاب حادة لأسباب أولها أن الحضور الاسلامي البشري والثقافي والديني لا يجد جذورا عميقة في الهجرة داخل فرنسا وأوروبا عموما، وكذلك تحول أوروبا وأمريكا الى حاضنتين لقادة وكوادر الجماعات الاسلامية السياسية الراديكالية وقد رفضت بعض الدول الأوروبية في السابق تسليم عديد من هذه الكوادر للأجهزة الأمنية، أما الجديد الذي

يراه الباحث في مشكلة الحجاب فيتعلق باحتقانات بعيدة تماما عن الموضوع الذي اثار المشكلة، ويرصد عبدالفتاح من هذه الزاوية عدة متغيرات مهمة يراها خلفية حقيقية لهذه الأزمة مثل تفاقم مشكلات البطالة وعسر الاندماج دخل بنية بعض المجتمعات الأوروبية وفرنسا على وجه التحديد، وكذلك شيوع أشكال عديدة من التفكك الأسري داخل بنية الأسرة العربية ـ الاسلامية، وضعف تمثيل الاسلام داخل المؤسسات السياسية والحزبية، وكذلك انفجار مشكلات الهوية، والموقف السلبي من جسد المرأة وسفورها وتغير الخطاب الديني لبعض المراكز الثقافية الأوروبية بسبب قيام بعض الدول النفطية مثل السعودية بتمويل هذه المراكز، وعلى المستوى المصري يصف نبيل عبدالفتاح موقف شيخ الأزهر بالمواءمة ويقول انه تعامل مع الموضوع باعتبارات ثلاثة أولها الفرض الديني الذي يلزم بالحجاب بصفة عامة، والضرورة وهو حياة المرأة في ظل نظام غير مسلم ونظرية السيادة أي حق الدولة في تقرير نظامها دون تدخل من آخرين.

وفي فصله عن الدين والدولة والإصلاح الدستوري يتناول نبيل عبدالفتاح تاريخ العلاقة بين الثنائيتين منذ دولة محمد علي باشا والخديوي اسماعيل، ويرصد الخروج على قواعد الحدود في الشريعة لا سيما في قانون العقوبات والاستناد الى بعض القواعد القانونية الحديثة، ثم جاء اسماعيل ليستعير القوانين الأوروبية، وقد كان مولعا بتحويل مصر الى قطعة من أوروبا، وكان الهدف دمغ الاقتصاد المصري في اطار منظومة الرأسمالية العالمية، ثم يتناول عبدالفتاح بالتفصيل ما أخذته القوانين المصرية عن منظومة التشريع العالمي واعتمادها تحديدا على المصادرة الغربية لا سيما فيما يتعلق بتشريعات الأحكام المدنية، ويتناول الكاتب السجال الواسع الذي دار حول اصدار القانون المدني ودور واحد من أهم واضعيه وهو الدكتور عبدالرازق السنهوري. ثم يتناول ثورة يوليو وعلاقتها بالأديان في السياسة ويعتبرها نقطة تغير سياسية واسعة المدى في علاقة الدين بالدولة وذلك ـ حسب عبدالفتاح ـ بالنظر الى الصراع السياسي الضاري الذي تم بين جماعة الاخوان وبين نظام يوليو، ثم يقول ان موضوع الأديان بعد الثورة بات أمرا خاضعا للسلطة الحاكمة وسياساتها فضلا عن أنها أصبحت جزءا لا يتجزأ من سياسات الهيمنة الأيديولوجية، ويتناول في هذا السياق مشروع دستور 1954 ثم العودة الى النص على أن الاسلام دين الدولة في الدستور الصادر في 23 حزيران (يونيو) 1956 ثم عودة السادات بالصراع الى الخلف بمحاولة تدين الصراع كله.

يتناول عبدالفتاح بعد ذلك الدين والدولة ومشروعات الاصلاح السياسي في اللحظة الراهنة، ويتناول الضغوط الخارجية في هذا السياق، ومطالب الاصلاح الداخلي وعلاماته، والتصورات الاصلاحية في الدولة والأديان وفي فصله الأخير يتناول «الأزمات الطائفية: الجذور ـ المتغيرات ـ المعالجات» ويعود عبدالفتاح بالمشكلة الى جذورها في التعايش الديني الاسلامي المسيحي في مصر، ويتناول كذلك المحاولات الأولية للتعامل مع الأزمات الطائفية وينتهي الى عدد من المقترحات للحل في الأجلين القصير والمتوسط ومن المقترحات التي يسميها نبيل عبدالفتاح «بنائية لحل في الأجل الطويل: منها تدريب المدرسين واعادة تأهيلهم على ثقافة المواطنة والحريات ولا سيما التدين والاعتقاد ومباشرة الشعائر الدينية والتسامح والقبول بالآخر، وإعداد مناهج جديدة تدرس من مرحلة رياض الاطفال وحتى التعليم الجامعي والعالي.

ويضيف نبيل عبدالفتاح الى هذه الأطروحات ضرورة اعداد دراسات عن تاريخ الأزمات الطائفية وأسبابها، وتدريب المؤسسات الأمنية واصلاح المنظومات القانونية التي تشكل قيدا على حرية المواطنة، وتجديد أواصر الاندماج القومي في ضوء ثقافة المواطنة ودولة القانون الحديث.

يقع الكتاب في 365 صفحة من القطع الكبير وصدر عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان.

«المُستَدرَكُ عَلَى شِعرِ أبي العَبّاسِ الجَرّاوِيّ»:

نصوص من الشّعر الموحّدي تُنشر لأول مرّة

أحمد السعيدي*

■ هذا فتح ذو بال في مجال تحقيق الشعر المغربيّ القديم عامة، والموحّدي خاصة، والجرّاوي منه على الأخص، ذلكم هو صدور مؤلَّف تضمن قصائد لم يسبق نشرها لشاعر الخلافة الموحّدية أبي العباس الجراوي (609 هـ/1212م)، مستخرجة من مخطوط غميس بعنوان: «جنى الأزاهر النضيرة، وسنى الزواهر المنيرة، في صلة المطمح والذخيرة، مما ولدته الخواطر من المحاسن في المدة الأخيرة»، لأبي الحسن الرُّعَيني الاشبيلي المعروف بابن الفخّار (666هـ) بتحقيق الأستاذين: البشير التّهالي، ورشيد كناني. وقد وقفا عليه بالخزانة الأزاريفية بسوس، جنوب المَغرب، حيث يقولان: «وكان منها مخطوط عتيق، مبتور الأول والآخر، عرّفه لنا الشيخ (قيّم الخزانة الأزاريفية سيدي محمد بن الحسن الأزاريفي، حفظه الله، بوصفه مجموعا في الشعر الأندلسي.. ويتبيّن لنا أنه من كتب الاختيارات الأدبية الأندلسية الموسومة بالفقدان، ولا ذكر لها في الفهارس». (الكتاب: 9)

ويأتي هذا العمل لتوكيد أمور ثلاثة:

1 ـ أن منطقة سوس ما زالت تحبل بالغميس والنادر من النصوص المخطوطة، وهذا يعزز ما ذهب اليه العلامة محمد المختار السوسي خلال تآليفه وجولاته في الخزائن السوسية، ومن ذلك عثوره على سِفرين نادرين، وهما: ديوان ابن الأحمر، ورسائل سعدية.

2 ـ أن السوسيّين تحفّوا بالأدب العربي والأندلسي منه تحفيّاً كبيرا، فهذا الأستاذ الحسن البونعماني (1402 هـ/1982م) يدبج مقالا بعنوان: «الأدب الأندلسي في سوس أو المدرسة الالغية» ((2 لتوكيد بعض سمات هذا التحفّي الذي من نتائجه وقوف المحققين على هذا الكتاب.. اذ يقول: «لم أدرِ من أين اتّصل رجال العلم في هذه الجبال السوسيّة القاحلة في الصحراء بالأدبَ الأندلُسي، بمعنى أنني لا أدري من الذي كان أول مؤسس لتلك النهضة الأدبية الأندلسية الأولى منذ قرون في هذا القطر السوسي». (3)

3 ـ أن هذه الوجادة الفريدة تُنبه الى امكانية تدارك المنجز الشعري المغربي القديم عبر التنقيب في الخزائن خاصة خزائن الأسر والزوايا والمدارس عن مصادره المختلفة، كما انها تنبه الى استحالة صياغة نظرية للأدب المغربي ومن ثم العربي دون التحصّل على مجمل نصوصه الشعرية والنثرية وجمعها وتحقيقها ودراستها، وهذا مما لا يناى تطلابه مع توافر ذوي الهمم والباع، يقول د. جعفر ابن الحاج السلمي: «.. نرى أن نشر دواوين الشعر المغربي محققة هو واجب علمي، ثم واجب وطني أيضا، وقد يقع الاعتراض على أن الدواوين الشعرية المغربية قليلة أو نادرة أو أكثرها ضائع غير أن هذا أدعى الى نشر ما وصلنا منها نشرا علميا محققا». (4) غبّ هذا كله، ما مسوّغات هذا المستدرك؟

اهتُبل بشعر الجراوي تحقيقا ونشرا من لدنْ جماعة من الباحثين والمحققين، مغاربة ومشارقة جهدوا ـ مشكورين ـ في جمع أشعار الجرّاوي والاعتناء بها، فخرّجوا ما وصلوا اليه منها بالتماسها في المصادر المطبوعة والمخطوطة، وهم: د. محمد الفاسي سنة 1986م (447 بيتا)، ود. محمد ابن تاويت سنة 1982م (607 أبيات)، ود. حسن الشبيهي سنة 1986م (625 بيتا)، ود. علي ابراهيم كردي (636 بيتا) الذي كان كتابه «ديوان الجراوي» آخر ما نُشر سنة 1994م بدمشق. وكأنّا بالمحققين قد نفضوا أياديهم من الجرّاوي طوال عقد من الزمان، وهو الشاعر المشتهر بغزارة شعره، وحديث معاصريه عن ديوان له حفيل. ويكون ظهور مخطوط «جنى الأزاهر» ضامّا ما ضمّه من شعر الجراوي أمرا ذا بال، اذ «يحتوي على كثير من النصوص ندّت عنها نشرات الدواوين السابقة..» (الكتاب: 9) اضافة الى نصوص غميسة لشعراء آخرين كمرج الكحل الأندلسي وصفوان بن ادريس التجيبي وابن حريق البلنسي وعامر بن هشام وأبي اسحاق الزوالي.. فالوقوف على هذا كله بما يتسم به من جدة واستدراك واضافة.. لَيُعَدّ من أبلغ مسوّغات ظهور أي عمل شعري أو أدبي يراد نشره بين الناس.

ما استُدرك من شعر الجراوي:

ولنقصر الحديث على شعر الجراوي في هذا المخطوط، ويقع ـ حسب المحققيْن ـ ما بين الصفحتين 109 و 123، وهو عبارة عن تسع قصائد:

ـ ست منها لم يسبق نشرها مؤلفة من حوالي مئتي بيت في مدح الموحدين ورثاء الحسين؛

ـ وثلاث قصائد سبق نشرها منسوبة الى صفوان التجيبي (598 هـ):

1 ـ تخميسة لمعلقة امرئ القيس في رثاء الحسين، حيث يقول المحققان: «ولعل المخطوط الذي بين أيدينا يحسم الخلاف الدائر بين دارسي أدب الغرب الاسلامي في شأن نسبة التخميسة، فالمعلوم أن محمد بنشريفة في كتابه «أديب الأندلس أبو بحر التجيبي» قد جزم بنسبة المخمسة الى التجيبي، بناء على ما في «نزهة النفس» لصالح بن شريف، خلافا للفاسي وابن تاويت اللذين محضاها للجراوي..» (الكتاب: 13)

2 ـ رائية من أربعة وعشرين بيتا، ولم يتوصل المحققان الى حكم فصل في نسبتها الى هذا الشاعر أو ذاك في قولهما: «وحسبنا أن ننبه الباحثين الى هذا الاشكال، ونقدح بينهم زناد السجال» (الكتاب: 15)،

3 ـ دالية في سبعة أبيات نسبها بعض القدامى للتجيبي فيما لم يوردها د. محمد بنشريفة فيما جمعه من شعره.

وعليه، يكون المحققان قد تحصّلا في مستدركهما هذا على 253 بيتا مستدركا، و 652 بيتا سبق نشرها، ليكون المجموع هو 878 بيتا، أي بفارق 242 بيتا عن نشرة كردي الأخيرة.

من هنا تتبدى قيمة هذا المستدرك وقدرته على تغيير معالم شاعرية الجراوي واغنائها، ومن ثمة يتيح امكانية دراسة شعره دراسة ضافية في ضوء ما استجد، واستجلاء جانب مهم من الشعر على العهد الموحدي.

خطة التحقيق وما اليها:

مما يعن للقارئ في هذا الكتاب، انصراف المحققين الى وسمه بـ«المستدرك» مع أنه في كليته ديوان شعر مصنوع ومحقَّق، والدليل على ذلك أنه يجعلنا في غُنْيَة عن غيره من النشرات السابقة. ولعله اقرار من لدُنهما بامكانية ظهور نصوص جديدة للجراوي تنسخ نشرتهما هذه نسخا، مع تواصل جهود المحققين والباحثين في الأدب المغربي وخاصة الشعر القديم منه. مهما يكن من أمر، يبقى أمر التسمية رهينا بتوجه المحققين المنهاجي والعلمي في عملهما..

وقد قسما الكتاب الى قسمين: المستدرك، وبقية شعر الجراوي بغية تبيّن القارئ لعملهما الصرف، ولعمل من سبقهما من المحققين. ويعد الاشتغال بتحقيق النصوص الشعرية المخطوطة عموما أصعب مما يظن، وأنفق للوقت والجهد، ومما يستلزم علما ودربة ومصابرة.. وما اليه من مقومات المحقق الثبت. هذا، ولم يشر المحققان الى خطتهما في تحقيق هذا الكتاب، فانصرفنا الى محاولة استنباطها من عملهما.

فأول ما يحقق في أي كتاب مخطوط نسبته الى مؤلفه ـ مع ما يعلم من كثرة الوهم والوضع في هذا الأمر ـ وعلى هذا درج المحققان، اذ يقولان: «وبدأنا العمل فيه بتحري مؤلفه بوسائل البحث المعروفة، فاهتدينا الى ابن الفخار الرُّعيني الذي يذكر في ذيل برنامجه أن بين يديه كتابا سماه «جنى الأزاهر..» (الكتاب: 10)

وقد قسم المحققان عملهما الى قسمين:

أولا ـ المتن: يضم النصوص الشعرية مصدرة بتعليق المصنف، وقد رُقمت وخُرّجت بحورها ووُضعت بين معقوفين، مع شكلها شكلا تاما، لمساعدة القارئ في تبين هذا المنجز الشعري القديم، وتعرُّفه أيضا مدى حنكة المحقق وعلمه بالعروض وبقواعد اللغة العربية.. اذ لا معنى لنشر نص شعري وتحقيقه وهو غُفْلٌ من علامات تضبطه وتوضحه، و«لأن الكلمة اذا وُجدت مضبوطة، فان ذلك يعني في عرف البحث أنه اعتُنِيَ بها وروجعت». (5)

ثانيا ـ الهامش: صنع المحققان هامشين للتحقيق:

1) هامش المقابلة: حيث يقولان: «أما عملنا الحالي فهو استكمال دواوين.. نقابل ما نشر منها بما في المجموع ونستدرك عليها ما ليس فيها، وهو كثير (الكتاب: 12) مما يعني أنهما يقابلان ما في المتن بما في النشرات السابقة وبعض المصادر الأدبية، وذلك واضح خلال العمل جلّه بغية التوصل الى أقرب رواية لشعر الجراوي، فيعتمدان ما يعتقدانه أقرب الى ذلك في المتن، ونظيره في الهامش، مع العلم أنهما اعتمدا نسخة فريدة. والملاحظ على عملهما في المقابلة أنهما يُدرجان رواية الأصل في الهامش وغيرها ـ الأنسب في نظرهما ـ في المتن دون وضعها بين معقوفين أو بين قوسين ((6، ومن ذلك: قَضَوا بَيْعَةَ الرِّضْوانِ ثُمَّ تَهافَتُوا حَقائِبُهُمْ بُحْرٌ مِلاءُ المَعاكِمِ

في الأصل: بحر، ولعلّ الصواب: بجر. (الكتاب: 44) وكذا بالنسبة لتدارك السقط:

فَمَنْ مِثْلُنا في سالِفِ الدَّهْرِ إنَّنا عِظامٌ دَفَعْنا في صُدُورِ العَظائِمِ

في الأصل: العـ...ـم، وفوق الفراغ عبارة كذا (الكتاب: 45)، يقول د. صلاح الدين المنجّد: «يسمح للمحقّق اضافة حرف أو كلمة سقطت من المتن، على أن يضع ذلك بين قوسين». (7)

2) هامش التخريج: شمل توثيق الأشعار وشرح بعض اللفظ المشكل، والتنبيه الى الاقتباسات القرآنية والتضمينات الشعرية وأوهام محققي ديوان الجراوي، مع التعريف بالأعلام البشرية والجغرافية، وبعض التعليق المركّز.. وقد أحسن المحققان باعتماد الاختصار والتركيز في صنع هذا الهامش، وعدم اثقاله بالنقول والتعريفات المطنبة كما يفعل بعض المحققين..

ولم يغفل المحققان عن تدبيج مقدمة مركزّة تحدثا فيها عن مخطوط «جنى الأزاهر»، ولمحة عن الحركة الأدبية في عصر الموحدين، مع حياة الجراوي ومصادر شعره المعروف، ونيلها بمصورّتين عن ورقتي المخطوط الأولى والأخيرة. أما بالنسبة للفهارس، فقد صنع المحققان فهرسا للقوافي، وفهرسا لمصادر التحقيق ومراجعه، ويا ليتهما أتمّا عملهما بصنع فهارس للآيات القرآنية والأعلام البشرية والجغرافية والجماعية.. وان كان ذلك مما يعول عليهما استدراكه في طبعة أخرى بحول الله (8).

وختاما، فحسنات هذا العمل من الغزارة والتوافر بمكان قصي، من حيث قيمةُ شعر الجرّاوي، واسهامُه في المنجز الشعري الموحّدي المتسم بالندرة، وكذا من حيث عملُ المحققيْن في تحقيق هذا الكتاب الحفيل ونشره ليعم به النفع بين الناس، وهذا محافظ خزانة القرويين بفاس د. علي لغزيوي يقول في تصديره للمستدرك: «انها لغنيمة علميّة نادرة وسارّة هذه التي آب بها الباحثان الواعدان: البشير التّهالي، ورشيد كناني، من رحلتهما الاستكشافية عبر الخزانات العلميّة في بعض الجهات من أرض سوس الطيّبة المعطاء العالمة. وقد أحسنا صُنعا اذ سارعا الى تقديم هذه الغنيمة القيّمة التي لا تُقدر بثمن هديّة الى القارئ العربي عاشق التراث، وقد حقّ لهما أن يعتبرا غنيمتهما كشفا غير مسبوق». (ص 7) ومن شعر الجراوي هذه القطعة في المدح (ص 36):

(الطويل)

تَرَى شُكْرَ ما أوْلَيْتَ أوَّلَ واجِبِ
أتَتْكَ وُفُودُ الشُّكْرِ مِنْ كُلِّ جانِبِ

تَمُرُّ عَلَيْهِ العِيسُ مَرَّ السَّحائِبِ
تَخَطَّتْ إلَيْكَ الدَّوَّ يَخْفُقُ آلُهُ

تَخُدُّ بِأيْدِيها خُدُودَ السَّباسِبِ
عَلَى شَدَّقَمِيّاتٍ قَلِيلٍ أناتُها

لَهُمْ عِزَّةٌ لَوْ كُوثِرَتْ بِالكَواكِبِ
جَماهِيرُ مِنْ عُلْيا مَعَدٍّ وَغَيْرِها

وَجَدْنا انْقِعالاً في مِياهِ المَغارِبِ
إذا أوْقَدُوها بِالمَشارِقِ لِلقِرى

زُهاءٌ عَلَيْهِ المَجْدُ ضَرْبَةَ لازِبِ
ولِلْعَرَبِ العَرْباءِ مِنْ حِمْيَرِيَّةٍ

وَأنْفُسُهُمْ تَعْدُو أمامَ السَّلاهِبِ
أعَدُّوا إلَى المَلْكِ الأغَرِّ سِلاهِباً

وَهَزُّوا عِصِيّاً في وُجُوهِ النَّوائِبِ

(1 صدر في 149 صفحة من القطع المتوسط، تحقيق: البشير التّهالي، ورشيد كناني، تصدير: د. علي لغزيوي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1426هـ/ 2005م.

وقد ناقش الباحث رشيد كناني مؤخرا أطروحته لنيل الدكتوراه في موضوع: «المنجز الأدبي لسعيد الحامدي السوسي (980هـ) تحقيق ودراسة»، باشراف د. أحمد العراقي، بكلية الآداب ظهر المهراز بفاس.

(2 نُشر في جريدة السعادة بالمغرب، العدد 5607 بتاريخ: 24 رجب 1357هـ/20 شتنبر 1938م.

(3 ديوان الحسن البونعماني: 174، جمع وتحقيق ودراسة: د. الحسين أفا، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1996.

(4 نشر التراث الأدبي المغربي بين الواقع والمثال، مع صنع ديوان أبي الحسن الحرالي المراكشي 84، ضمن التراث المغربي والأندلسي، التوثيق والقراءة (ندوة) منشورات كلية الآداب بتطوان.

(5 تحقيق نصوص التراث في القديم والحديث 102، للصادق الغرياني، منشورات مجمع الفاتح، 1989.

(6 تحقيق النصوص ونشرها 77، لعبد السلام هارون، القاهرة 1994. وتنظر في المستدرك مثلا الصفحات: 31، 32، 33، 34، 36، 38، 42، 43، 44، 45، 47، 48، 49، 54، 55، 68، 72.

(7 قواعد تحقيق المخطوطات العربية 16، بيروت، 1987.

(8 يعكف المحققان على تحقيق مستدرك على شعر مرج الكحل الأندلسي يضم نصوصا تنشر لأول مرة.

* كاتب من المغرب

قـــص

البيت الأول

محمود الريماوي *

[الى حلمي الأسمر]

■ حينما وصل مع أمه وأبيه المسنين لزيارة البيت الأول لعائلة، قبل ظهيرة يوم خريفي، وبعد بحث لم يطل واستكشاف مسبق على الخريطة، فقد كانت تتناهبه مشاعر شتى، فمن الفضول الطاغي لزيارة المنزل الذي أمضت فيه الأم والأب سنواتهما المشتركة الأولى، وشهد ولادة شقيقه الأكبر الذي يكبره بثماني سنوات، الى الخشية بأن لا يتمكن من رؤية البيت، اذا ما رفضت العائلة الاسرائيلية الساكنة السماح لهم بالدخول، كما وقع مع كثيرين قصدوا منازلهم الأولى التي أجبرتهم الحرب على مغادرتها، الى خشيته بأن يبدو أمام نفسه، مجرد زائر بل سائح اذ لا ذكريات تربطه بالمنزل، مما يحرجه مع أمه وأبيه، أو أن لا يعجبه البيت القديم ببساطة، مقارنة بالشقة الحديثة الفسيحة التي يقطنها هو. ومع ذلك فقد كانت تقوده لهفة الوالدين، وفضوله العاطفي وحنينه الغامض لكن القوي، لرؤية البيت الذي فارقاه قبل 48 عاما.. مرة أخرى هذا الرقم المشؤوم.

يقع البيت في قرية الشيخ مونس التي جرى تهديم معظم بيوتها وقد نجا بيتهم بأعجوبة، وباتت القرية بحكم الهندسة الجغرافية والديمغرافية احدى الضواحي البعيدة لتل أبيب، وقد استدل الأب.. على البيت بمعاونة الزوجة رغم ضعف بصرها، لأنه احتفظ رغم الترميم بمظهره الخارجي، باستثناء تغيير الأشجار فقد اقتلعت شجرتا التين والتوت، وحلت محلهما أشجار غير مثمرة «لا اسم لها»، والسور أصبح أكثر ارتفاعا واتساقاً. وللحظات بدا الأب متردداً في قرع الباب. وهو ما لاحظته الزوجة فتقدمت عليه بخطاها، وسألت ابنها أن يبحث عن مكان الجرس، وقد تمنى الابن أن يعثر عليه سريعا حتى لا تثير هيئة العائلة الريبة، وقد حدث ذلك.

ضغط على كبسة الجرس، ولدهشتهم فقد سارعت سيدة لا تبدو أنها تجاوزت الأربعين الى فتح باب داخلي، ووجهت سؤالاً بالعبرية يفهم منه الاستفسار عن الطارق. فأجابها الابن بالانجليزية سائلاً اذا ما كان يستطيع التحدث اليها، وقد اقتربت من البوابة الخارجية محتفظة بمسافة نحو ثلاثة أمتار، عن العائلة العربية «الغريبة». أجابها الابن وهو رجل مكتمل القامة والقيافة، بأن اسمه يوسف وأنه بصحبة أمه وأبيه، وأنهم قادمون جميعاً من عمان لرؤية بيتهم العائلي، الذي غادروه في حرب 1948 اذا لم تكن تمانع في ذلك. لم تبد السيدة اندهاشا كبيراً لما سمعت، فقد تكدرت فقط، اذ سمعت عن حالات مماثلة عديدة، حدثت بعد اتفاق اوسلو ومعاهدة السلام مع الأردن، ولعلها فكرت لوهلة بأن للسلام متاعبه أيضا، فهو يوقظ الماضي النائم (كمن يتم تنويمه بمخدر قوي) وحيث هناك اتفاق «وطني» على تناسيه، ومحو صورة ضحاياه.

لم تجب على التو اذ انشغلت بتفحص ملامحهم واخفاء كدرها، ثم لم تلبث أن دعتهم للانتظار قليلاً.

وقد غابت لبضع دقائق، لتعود داعية اياهم وان بفتور للدخول. لم يصدق الأب ما سمعه، غير أن عزيمة جديدة حلّت عليه فأزاح امرأته عن طريقه، ونطق «دستور» وهو يشق طريقه وراء سيدة البيت الجديدة. أما امرأته فشكرت السيدة واعتذرت لها مسبقاً عن الازعاج، دون أن تفهم السيدة ما يقال ولكنها خمنت المقصود. قادتهم السيدة الى الغرفة الكبيرة غرفة الاستقبال.

الأب انشرح لأن البيت في حال جيدة وكما تمنى، وكاد يشكر السيدة على اهتمامها به لكنه لم يفعل، اذ أخذ يردد: ها هو. وامرأته تردد وراءه: نعم هذا هو البيت، لم يتغير عليه شيء كثير.هل تشربون شيئا؟ نطقت السؤال بسرعة فائقة ووجهها نصف مائل عنهم، فأجابوها معاً: اذا كان هناك ماء. قال ثلاثتهم دون اتفاق مسبق، وحسب طريقة فلسطينية مألوفة، يبدي فيها الزائر اكتفاءه بالماء للتدليل على اعتذاره عن تناول أي شيء. أحضرت المرأة زجاجة ماء وثلاثة أكواب.

وأنبأتهم أن زوجها يعمل ضابطاً في «جيش الدفاع»، وأنها استمهلتهم على الباب لكي تتصل به، وقد فعلت ولم يبد ممانعة في رؤية البيت. وأشارت الى صورة له بزيه العسكري، داخل اطار على منضدة في الزاوية. انقبض الأب وخاصة لدى ملاحظته انشراح صاحب الصورة. وقالت السيدة الزائرة: بنينا هذا البيت وتزوجنا وعشنا فيه سبع سنوات قبل أن يرحلونا. فقالت المضيفة: نحن هنا منذ أربعة عشر عاماً، نحن من مواليد اسرائيل ووالداي من مواليد بولندا، وقد اشترينا البيت من عائلة يهودية من العراق ورممناه..

وسألتهم ان كانوا يرغبون في رؤية بقية البيت، فنهضت الزوجة وتحسست الجدار قربها ولم يكن خشناً، وكانت تتمنى لو أنه كذلك حتى تحتفظ بلمسه، ومشت خلف صاحبة البيت الجديدة. بينما ساور يوسف الذي جاوز الأربعين بأربع سنين، ساوره خاطر أن يسألها اذا كانت ترغب في بيع البيت، وقال لنفسه: ألم يحل السلام، ومعه الأخذ والعطاء والبيع والشراء؟. هناك غرفتا نوم ومطبخ صغير وحمام واحد. هذا هو البيت. السيدة المسنة الزائرة كانت تهز رأسها وهي تحدث نفسها: طبعاً هذا هو البيت، نحن من يعرفه. الأب ينظر بامعان الى البلاط والجدران والسقف، نظرة المتفحص الذي يعاين ما تغير وما بقي على حاله. يوسف يراقب انفعالات أمه وأبيه، ويقول لهما ان بيتكم جميل. ليس كبيراً لكنه جميل.

وفي هذه الأثناء، ولما أوشكت الزيارة على الانتهاء بعد مضي نحو سبع دقائق فقط، وبعد استيفاء الغرض منها، اذا بطفل بملابس زاهية وبصحة جيدة في سن الثالثة أو الرابعة، يطل فجاة ويبتسم في وجه يوسف. ابتسامة طفولية هانئة تستحثه على أن يبادلها بمثلها، بادله بابتسامة عفوية شبه مرتبكة، فتشجع الطفل واقترب منه. وكانت الزائرة اختتمت جولتها، وقد شغلها الأثاث وألوانه وطريقة توزيعه الغريبة بالنسبة لها، وفكرت أنهم فعلوا ذلك متعمدين، حتى تتغير هيئة البيت من الداخل، دون أن تتبادل حديثاً مع المضيفة. أما الأب فتبدلت فرحته الى زعل: انه لا يجد ما يقوله ولا ما يفعله، وليس بوسعه الجلوس لتنسم عبق البيت، فبماذا يبرر ذلك لو فعل؟ أما يوسف فقد انشغل لهنيهات بالطفل، وأخذ بعد قليل من التردد يداعبه بالتصفيق الخفيف وفرقعة الأصابع. وفكر لو أنه أحضر معه ابن شقيقه أو شقيقته، كي يلهو أحدهما مع هذا الطفل، فأبناؤه هو شبوا عن الطوق، فكر بذلك مع ابتسامة مكتومة متسائلة: ما نفع ذلك لو تم؟

وفيما جرجر الأب والأم أقدامهما شاكرين باقتضاب وبصوت متلعثم للمضيفة استقبالها، بعدما استشعرا أنهما يفقدان البيت لمرة ثانية وربما أخيرة، حتى تمنى كل منهما في سره لو أنه لم يأت وأعفى نفسه من التجربة، فان يوسف الذي لم يصدق تمكنه من رؤية البيت الساحر، والتواصل معه بهذه «السهولة»، البيت الهادىء الذي يشبه بيوتاً حجرية ريفية صغيرة أليفة، صادفها في العديد من القرى والمنتجعات في حوض المتوسط، فقد لبثت في ذهنه بعدئذ على الخصوص صورة الطفل اللاهي ولم تبارحه، الطفل الذي تقرّب منه في غياب أبيه ومع توجس أمه، وتلاقت نظراتهما معاً غير مرة، والذي شيعه لدى مغادرته بنظرات بدت له عاطفية.

* كاتب من الاردن